﴿ الفصل الاول ﴾

تمهيد

(شيء تجب محاربته)

اخلاق الطبقة الدنيا عندنا — ماعند هذه الطبقة من المساوي — ماينبغي ان نكون عليه لبلوغ الكمال القومي — سرعة مايلحق بالنفوس من شرور الحضارة بقية دائنا الحالي — ماعند غيرنا منه — اختلاف الآراء في الداء والدواء

لقد اشتهر أفراد طبقة الامة المصرية الدنيا على اختلاف نحلهم بشيء من الخفة والطيش مع السذاجة وسلامة النية غالباً ، وإن صدق مايقول الذين بحثوا في اخلاقنا من الاسلاف الطيبين فقد خصت هذه الفئة كذلك بشيء من الخلاعة وحب المجون ، فباجتماع هذه الصفات وبضميمة ذلك العدو اللدود من الجهل المطبق اليها تكوّن في اخلاق جمهور سكان المدن لدينا من الجهلة وأهل الغباوة والدعارة مزيج من الاخلاق الشائنة لايمكن أن نسميه إلا فساداً وشراً ترى آثاره في سلوك الافراد بحسب الاستعداد وقابليات الطبقات وتؤثر وتظهر في مجموع أخلاق الامة وآدابها العمومية خصوصاً في الطبقات الاقرب لتلك الطبقة الدنيا واحداثها ومن تسرق أخلاقهم من أخلاقها ، وهذا الذي يشاهد من أحوال تلك الطبقات في مجتمعاتها وعلى قوارع الطرق من قلة الحشمة والمجاهرة بفحش

القول وبذاءة اللسان والوقاحة والتهتك والخصام والتنكيت والقاء الاقوال على عواهنها بلا مبالاة ولا احتشام ولا مراعاة احساسات انسان وإن يكن اكثره بسلامة نية وسذاجة للجهل عادة بانه من المساوى والرذائل الشائنة التى لا ينبغى ان يتصف بها انسان خصوصاً فى هذا العصر عصر الجد والاجتهاد والادب

وأهل هذه الطبقة من الامة لجهلها وغباوتها ونقص تربيتها يكثر بينهم الكذب والغيبة والنميمة وهى إذا ما حدثت بخبر قلبته وصرفته عن مواضعه وزادت عليه من عندياتها - وجراب عندياتها مملوءٌ - كتلك المرأة التى يحكى عنها في حكايات الخرافات الحكمية أن زوجها عثر على كنز فلكي يمتحنها في كتم السر قال لها انه باض بيضة ورجاها ان تكتم عليه حاله ولا تفضحه به فما كان منها إلا ان أفشته عليه وما جاء المساء إلا وقد طرق سمعه انه باض مكان البيضة مائة بيضة ! فهكذا حال الطبقة الجاهلة عندنا تقلب الحقائق وتزيد عليها فتذيع مقلوبة ممسوخة وتبدو على الشفاه خرافات وخزعبلات يؤخذ بها على رأينا العام ، فهذا وما تقدم من حال عدم الحشمه والادب والوقار فى السلوك كالذى يشاهد فى أفراد الاوروبيين بيننا مما يلزم

مناهضته ومقاتلته بكل الوسائل الادبية حتى تخف وطأته وتستأصل على قدر الامكان من نفوسنا شأفته .

أى قوم : إنّا قد أضحينافي زمان يجب ان نكون فيه امة حية ، امة علم وعمل يناسب وجودنا ، امة جد وأدب وأخلاق قويمة وقد كفانا رقاعة وسفاسف وتباغضاً وتدابراً وأمر تلك الصفات اللاصقة بجمهورنا مما يعيق بنا فى سلوك هذا السبيل المجيد من بلوغ الكمال القومى بل قد تفسد علينا معه أحوالنا وأحوال ذرارينا من الطبقات الرفيعة التى هى عنوان الامة وشرفها لانها أمراض ولها شبه جراثيم تعدى كما يعدى السليمَ الاجرب ولا برهان غير المشاهد والمشاهد كلها عبر .

وإذا أضفنا الى هذا سهولة ما قد يلصق بالنفوس عادة عندنا من مفاسد التمدن الحديث وشرور الحضارة الجديدة لانها تجد نفوساً غير متأصل فيها بذور التربية الحقة ولا غراسها الطيبة التى يمكنها وحدها ان تكبح جماح النفوس تلقاء عوامل الاغراء والتشويق النفسي لا جرم كان لنا من جملة ذلك مرض اجتماعي ثقيل الوطأة وداء أدبى شديد الخطر يمكن أن نسائل نفوسنا محاوله : أنحن فى تقدم أم فى تأخر ؟ أنحن امة ذات

كفأة على حفظ كرامتها أم أنّا قوم ندوس تلك الكرامة تحت أقدامنا جهلا وتجاهلا في سبيل شهوات النفوس وعدم التأثر لما تتألم له هيئتنا الاجتماعية ؟

ولكي أصوّر بقية دائنا العضال ومرضنا المتشعب الاطراف أقول : انه ولئن كان اهل الريف عندنا أحشم نفوسا من أهل المدن لبعد الاوساط عن بؤرات فساد المدن وغوغائها الا أن لهم هم أيضا معائب وشروراً اضحت اشهر من نار على علم من اكمان الاحقاد وكثرة الانتقامات والمنازعات والتزويرات الى اشباه ذلك مما لا يمكن لعقل انسان ان يتصور انه يوجد كهذا شر في صفات الانسان . وإذا ما انتقلنا الى دائرة تلك الفئة من « لصوص العصبجية والفتوات » ومتشرديهم في المدن لدينا كان لنا منها ومن آفتها هي الاخرى — حتي عند اليهود — منظر آخر لا نظير له ولا مثيل فى العالم تبرأ منه الانسانية ويندى له جبينها حياءً وخجلا .

نعم هذا الحال الذى نئن منه ونشتكي ربما وجدت له اشباه ونظائر عند غيرنا من الامم غير امتنا ولكن للفرق الجسيم بين التربية لدينا والتربية عند تلك الامم لا سيما فى مدرستها

الاولى من العائلة ثم تلك الحشمة وذلك الادب والكمال والذوق الذى يلاحظ فى سلوك الوسط العمومى ثمّ ولو مع ما قد يكون من وراء هذا السلوك من ميل الى الشهوات أو اندفاع في تيارها لذلك كان ضرر هذه الاحوال عندنا اكثر واظهر واكبر « فضيحة » مما هي لديهم .

تلك هى حالتنا وحال علتنا ونحن نرى مع ذلك كل يوم جرائدنا فى ازدياد وانتشار ونسمع كل حين بتقدم العلم وانتشار أنوار المعارف وفتح المكاتب والمدارس والحكومة السنية تحتاط للامور وتضع القوانين والنظامات الرادعة وتوقع القصاصات الصارمة ولكن ما بالنا تكثر مع ذلك شرورنا وتزداد مساوينا وتمتد عدوى هاته الامراض بكثره في هيئتنا فلا الفلاح حرسه الله يكف عن شره وأذاه ولا المدنى يستقيم عوده ويتهذب خلقه ؟ لا ريب ان لهذا سراً واسبابا وعللا منها قديمة ومنها متجددة كل يذهب فى تعليلها مذهباً وكل يصورها بحسب تصوره ولكنها كلها قد لا تتخطى فساد السلوك فى الوسط الاجتماعي وآدابه وضعف عمل التربية المدرسية حيال هذا وذاك . او ليس في هذا شيء تجب علينا بالحق محاربته ؟

﴿ الفصل الثاني ﴾

(قوى النفس واصول الادب)

القوى النفسانية المودعة في الانسان — الادب — تحقيق الكمال بالادب وهو السعادة — تقسيم الادب الاجتماعي الى نظري وعملي — اقتصار هذه الرسالة على القسم العملي مطبقة بنوع ما على حالنا — أصول الآداب المودعة من أصل الفطرة — قوى النفس البشرية وشرف كفائها — فكرة الخير وما يتبعها من فكرة الجميل والجميل والحق — اختلاف الحكم باختلاف العرف — وجوب التربية للتحلي بالآداب الصحيحة .

مهما اختلف الناس في العوائد والطباع ومهما تباينوا في الخلقة والامزجة فان هناك في النفس الانسانية اصولا وقوى عامة هي أساس الادب الانساني ومصدر كمال النفس البشرية مما يجعل في الانسان تلك القابلية وذلك الاستعداد لتهذيب خلقه وتزكية نفسه وفاق السنن الادبية المجمع عليها بحكم الظروف بصرف النظر عن الخلف في العادات والاحوال الاجتماعية القومية الجزئية من احوال الاجتماعات البشرية التي لها حكمها من حكم البيئة والتقاليد في الامم وعاداتها الخاصة بها .

ولقد عرّفوا هذا الأدب الانساني بانه «علم المبادىء التي تولي بوجه الانسان شطر كماله» فمعرفة هذا الكمال اعني غاية الوجود التي يجب ان يرمي الانسان بقواه اليها وتحقيقها هو

ما يتكفل بتلقينه للانسان هذا العلم الاخلاقي الجليل

وإذ كان تحقيق هذا الكمال هو إخراج تلك المبادىء من طور القوة الى حيز العمل ، وبما ان كل امرىء يحقق لذاته هذا الامر الجميل يحصل بلا أدنى ريب على الغاية السامية التي يتوق بطبيعته البشرية اليها بما يجعله مرتاحاً متلذذاً لذلك حق لهم ان يعرفوا ايضا هذا العلم بالحق انه فن تحصيل السعادة

ولعمر الحق ان التحلي بالادب هو في الواقع أصل تحصيل السعادة بعينها لان الانسان اذا وفق وطابق بين عمله وسنن الآداب الجليلة والاذواق السليمة لا جرم حصل أجل انواع السعادة واللذة بل ورسوخ القدم في كل الشؤون العملية لان من بنى على غير هذا الاساس في مثل تلك الشؤون الحيوية مهما حصل بادىء ذي بدء من حظ وغاية فلن يكون الا بانياً على صفحات الماء فتسوء حاله وقل ان ينتظم عمله ويخسر غالباً ثمار اتعابه .

ويقسم هذا الادب بناء على التعريف الآنف الى قسمين كأكبر الفنون البشرية أحدهما نظري عليه استنباط المبادىء وتقرير وتحليل قواعد السلوك والاميال واستخراج المبدأ أو القاعدة الصحيحة التي يطلقون عليها اسم « القانون الادبي »

أو « القاعدة الادبية » والآخر عملى يحدد لنا الافعال ويبين لنا حسنها من قبيحها وصحيحها من فاسدها بالنظر الى الاشخاص وبالنظر الى الظروف المكتنفة للعمل

وانا في هذه الرسالة لست بمتكلم الا على هذا القسم الاخير مطبقاً على حالتنا الخصوصية وبعبارة اخرى انى لست بمتوخ هنا الا سرد بعض ماجمع من تلك المبادىء في المؤلفات العصرية بالايجاز المطلوب لمثل هذا المقام من الارشاد بالاختصار والوضوع بحسب مايوافق ذوقنا العصرى بما أراه مفيداً لهيئتنا الاجتماعية على اختلاف نحلها بعض تلك الفائدة التى قد تأتيها من هنا ومن هنا من ابحاث جماعة الكتاب العصريين النافعة وهو علاج حسن فى جملته وان كان غير قاطع حيال عظم المؤثرات الاخرى لكن مالايدرك كله لايترك كله هكذا قال عقلاء السلف وهكذا قد تستصعب الامور فى بدايتها .

قلت في أول هذا الفصل ان أصول الآداب مودعة فى الانسان فهى فى نفسه وفى قوى نفسه وفى عقله الرشيد ، وبعبارة أخرى أنها قد قد تنحصر في قوى النفس البشرية و كفائها وفى مبدأ أو فكرة الخير الشاملة لعموم البشر ثم في مبدأ المسؤولية

الشخصية المدركة للانسان .

أما قوي النفس الآدمية وكفأتها فهى ان الانسان قد امتاز على الحيوان الاعجم بمزايا وخص بخصائص ومواهب وجد فيها شرفه ورفعته ولكن هذه الرفعة وتلك الكفأة قد ترى قابلة للتغيير تارة بالزيادة وتارة بالنقصان بحسب مايستعمل المرء قواه ويستخدم مواهبه ويستفيد . فاذا استفادت هيئة واستخدمت قواها كأمة متمدنة متأدبة لاريب صلح حالها وفازت في معترك الحياة البشريه بأجل الارب والسعادات والا انعكس حالها وان حازت أسمى الآداب الموروثة نظريا إذ العبرة بالفعال واختيار الاساليب فيها على الدوام حتى تمد قوى النفوس بأجل الامداد وتحد الافعال ضمن دوائرها المطلوبة بحسب المقتضيات

وفكرة الخير أومبدأ الخير يشمل بنى الانسان كلهم أيضا لان الناس وان اختلفوا فى الصور والفطن فهم مشتركون فى قوة عامة هى خاصة النفس البشرية وهى العقل الذى يهدينا الى فكرة الخير إذ لايكون شخص بدأ ذكاؤه فى النمو والتيقظ الا ويدرك بالتمييز الخاص بالبصيرة الآدمية الفرق مابين الخير

والشر والصحيح والفاسد والجميل والقبيح . ففكرة الخير هى اذاً أساس الادب النفسى وهى وفكرة الجميل والصحيح مرتبطة بعضها ببعض أيما ارتباط لاشتراكهما في المصدر من النفس فمن ثم إذا وصف الفعل الواحد بأنه حسن وجميل أتصف كذلك بنوع ما بأنه جيد . وأنا ذا فعلنا خيراً كنا كذلك على الحق وعلى الصدق .

واختلاف الحكم لاينفى المبدأ العقلى للخير — ذلك ان فكرة الخير عامة مطردة فى البشر وهى لازمة بالضرورة وغير ممكن ان تنفك عن النفوس البتة أو لايقع فى الوجدان الاعتراف بها لانها مقررة بالعقل وواجبة به لكن تطبيق هذه الفكرة على الفعال من حيث وصفها بها قابل للتغيير بحسب الزمان والمكان واختلاف العوائد والاخلاق بحيث ان الفعل الواحد ليس من الضرورى ان يكون في كل زمان وفى كل مكان محكوما عليه بالحسن أو بالقبح بل يجب ان يلاحظ جيداً ان هذا الحكم إنما يرجع غالباً الى العادة والمألوف عند الناس فى أوساطهم بمقدار ماصح عندهم من الاحكام وهم دائماً بأسم الخير يستحسنون ويستقبحون الفعل الواحد بمقتضى ماتوحيه وتفسره لهم مألوفاتهم المختلفة فان

كانت صحيحة وجيدة المبادىء صحت أحكامهم وبالتالى صلحت أفعالهم واستقامت اعوادهم والا ساءت أحوالهم ونفهت أحكامهم وبعدوا عن الخير الحقيقى والكمال الحقيقى بمقدار مانسوا أوتناسوا من مبادئه . ومن هنا وجبت التربية ووجب التعليم والتهذيب ووجب التعويد الفعلى من الاتصاف والعمل فى كل أدوار الحياة حتى تصح المبادىء الادبية وترسخ ولا تشذ الفعال عن الخير الحقيقى والحدود المقررة بحسب مستحسن الاحوال الصحيحة المجمع عليها لان بالتربية والتثقيف تكتسب العقول هاته المبادىء الصحيحة وتستفيدها وبالاتصاف العملى المقرر ترسخ فى النفس الاحوال الصحيحة وملكاتها الرجيحة وتحصل الثمار الشهية المطلوبة فى الهيئة وعند الفرد في ذاته للمسئولية — ذلك المبدأ الثالث للأدب الذى سيأتي شرحه — الواقعة عليه أمام وجدانه وأمام هيئته فهل عندنا نحن شىء من العناية بتلك الشؤون الحيوية ؟ هل يفيدنا الادعاء بأنا أهل أدب جم ومبادىء صحيحة ومحاسن طويلة عريضة وهى قد لا تخرج عن نظريات وأقاويل عويصة مبعثرة في لفيف أسفارنا العتيقة يناقضها على خط مستقيم حال العمل السيىء الذي أنتجه الاهمال للتربية بحسب المقتضيات عند جمهور الامة ؟

﴿ الفصل الثالث ﴾

(المسؤولية الادبية)

لماذا تقع المسؤولية على الانسان وحده — حد هذه المسؤولية أقسامها — المسؤولية الادبية — شروطها . العقل والحرية — اختلاف المسؤولية — المسؤولية التامة والمشتركة — الوجدان وحكمه — فى تربية الوجدان استصلاح حال النفوس

لما كان الانسان بطبيعته جديراً بان يعرف كماله على نحو ما سبق ولا يمكنه بحال من الاحوال إذا بعد عن هذا الكمال أن يجعل الجهل به عذراً بالنظر الى الاحوال الارتقائية المحدقة به إذ جهل المرء لهذا الكمال والوسائط التى تؤدى الى تحقيقه لنفسه إنما هو فى مثل تلك الاحوال من الغلط الفاحش الذي لا يعذر صاحبه بازاء الشرائع المعمول بها ، ومعرفة المرء ذلك ثم عدوله عنه غلط اكبر ووزر أعظم فالمرء مسئول عن هذا وعن ذاك وبعبارة اخري انه مستحق عليه أعظم القصاصات الادبية التى من اولاها وأفظعها فقدانه لصفة الكفأة الانسانية وسقوط الشرف الانسانى

وتحد هذه المسؤولية الادبية الواقعة في عنق الانسان بانها « صفة للانسان بمقتضاها يحاسب أدبياً على جميع أفعاله ويجازى عليها جزاء ادبياً حقاً من قبل نفسه أو من لدن بنى

جنسه» فان كان العمل جيداً وحسناً كان الجزاء خيراً وأن كان رديئاً شائناً كان قصاصاً وعقاباً بقدره ، واذ كان كل فعل لنا يفترض فيه إما القصد والعمد وإما غير القصد والعمد ، وبما ان الاول هو فى الغالب من صفات افعال العقلاء لذلك انقسمت المسؤولية الى قسمين مسؤولية عن العمل ومسؤولية عن المقاصد السابقة له

والمسؤولية الادبية هي التى تنتج عن المقاصد ، وبناء على هذا فانا نشاهد الفعل الواحد قد يتكيف بالكيفيات المتنوعة ويصطبغ بالصبغات المختلفة تبعاً للقصد والعمد الذي سبقه ، فاللص الذى يتربص لانسان يقتله ويسلبه ما له عليه مسؤولية القتل بالعمد وسبق الاصرار على اشنعها بخلاف ذلك الصياد الذي قد يخطىء المرمى فيصيب بدلا عما كان يقصد من الصيد انساناً فيقتله فانه وان يكن قاتلا مثل الاول لكن شتان بين مسؤولية هذا ومسؤولية ذاك أدبياً وشرعيا لاختلاف مقصدى الاثنين وقس على هذا كل الافعال التى يأتيها الانسان فانها تعتبر أدبياً بمقاصدها والعبرة شرعاً أيضا بالمقاصد .

وشرط المسؤولية « العقل والحرية » لان كل فعل يقع

من انسان لا يكون صاحبه مستكملا هذين الشرطين لا يقع على صاحبه مسوءولية الا بقدره لانه يلزم أن يعتبر فى الفاعل مقدار ادراكه ووزانه لما يقدم عليه من الفعل ، وليس معنى هذا الادراك الاكتفاء بان الانسان مدرك لعمله بنوع ما لانه واضح ان العمل الذى يبدر من الانسان بغير شعور من النفس عند وقوع الفعل كأفعال النائم والمصروع والمحموم الخ فهذه ليس فيها مسؤولية إنما المقصود بالادراك تقدير المرء للفعل ووزانه وتدبره لمقدماته ونتائجه سواء كان حسنا أو قبيحا، نافعا أوضاراً، حقا أو غير حق ، فهذا التقدير وذلك الوزان يستلزم درجة من الكفأة العقلية والتربية العملية ولا يعذر الجهل بها في مجتمع حائز لصفات التمدن الاصلية والا بطلت الشرائع وفسدت الاوضاع الاجتماعية

أما الحرية أى التمكن من الفعل والتمكن من الامتناع عنه فشرطها ان يكون المرء حراً فى عمله لانه ليس من العدل أدبياً ان توقع المسؤولية على أمرىء واقع تحت تصرفات شرائع قسرية ونواميس تضطره للعمل ولا يمكنه معها ان يعمل بارادته ، فكما انه ليس من مسوءولية على البحر أو الارض فيما

يثيرهما من العواصف والانواء والزلازل التي قد تأتي بالاضرار والتلفيات الجسيمة بواسطتهما أو على ذلك الحيوان المفترس بالنظر الى صفاته الغريزية فيما يأتي من أذى وافتراس كذلك الانسان لا مسوءولية عليه الا بمقدار ما هو مالك من ارادته وتمام عقله وحريته ، فالمجبر على العمل بأى من انواع الاجبار أي فقدان الارادة أو العقل لا مسئولية عليه من هذه الوجهة القسرية الا بقدر اشتراكه فيها .

ينتج مما تقدم من هذين الشرطين شرط العقل وشرط الحرية ان هذه المسؤولية متغيرة بحسب الاشخاص بل وبالنسبة الى الشخص الواحد بالنظر الي الاوقات والظروف فالحرية في الواقع معلقة مباشرة على العقل فلكي تكون الارادة حرة مالكة تمام قيادها وجب ان تستنير النفوس وترشد البصائر الى الامور بحسب الاحوال الجميلة بواسطة العقل واستفادته واستمداده ، وهذا العقل بالنظر الى ذلك قد يزيد حال معلوماته ومسترشداته وقد ينقص بحسب التطبيق والتعليم والاختيار والصحة والمرض والقوة والضعف والاعمار ، وللشهوات وشؤمها حكمها هنا من سيء التأثير بالتشويش والارباك بحسب موافعها من النفوس

وبقدر انضباطها أو عدم انصياعها للعقل .

وتعد المسؤولية تامة فى حال استيفاء المرء بأزاء الافعال كل شروطها من العقل والحرية . ثم القصد والتصميم ، وهى بهذا غير فائتة الجاهل القادر ولا ذلك الذى يدفع بنفسه في تهلكة الشهوات والجهالات والا فسدت الحدود الادبية والشرائع الموضوعة وتعد المسئولية مشتركة أى غير ملصقة بصاحبها بالذات اذا وقعت فيها الفعال بتأثير مؤثرات خارجية كالنصح والاغراء والاجبار على الافعال من اشخاص ذوى سلطة على المرء كالاباء والرؤساء والمخدومين الى اشباه ذلك فان المسئولية فى هذا وامثاله تتوزع بل وتصعد حتى تلصق على أعظمها بمصدرها الاصلى

*
* *

ومبدأ المسئولية الادبية يرتكز على الوجدان البشرى والضمير الانسانى من النفس البشرية التى أودع فيها هذه القوة الخاصة التى تحكم بها على الفعال إما بالجزاء الخير وإما بالتقبيح والعقاب البليغ ، إذ هذه القوة أو الملكة من خصائصها وزن الافعال والمقاصد وتقديرها اقدارها بالنسبة الى فكرة الخير والشر المودعة فى النفس الآدمية فاذا قامت الاعضاء بعمل الخير

سرت وانتعشت القوة الوجدانية وكانت المسئولية أمام نظر الضمير والذمة خيراً محضا وسروراً شاملا ولذة نفسانية عالية، وإذا كان الفعل قبيحاً مذموماً كان الحكم الوجدانى توبيخا وتقريعا وكدراً لاحقا بقدر مافي النفس والعقل من معرفة وعلم بآثار الرذائل والفضائل .

وهاته القوة قوة الوجدان الانسانى لا تقتصر في حكمها وتقديرها الفعال والمسئوليات اقدارها على نفسها فقط بل قضاؤها يتعدى أيضا الى فعل الغير ، وكل امرىء فيه هذه الخلة وفي كل تشاهد بصفاتها العامة المميزة التى تنسب الى الجبلة البشرية وترتبط بتينك القوتين الاخريين للنفس قوة العقل وقوة الشعور والاحساس ولقد عرفوا الوجدان بالاستناد على هذا من حاله بأنه « العقل حاكماً على الفعال بالنظر الى تعلقها بمبدأ الخير والشعور النفسى مرتاحاً لمطابقة الفعل للصواب أو متألماً لعدم مطابقة الفعل لمبدإ الخير »

وعمل هذا الوجدان فى تأدية وظيفته هذا يظهر ويشاهد بأدنى تأمل فى الاحوال اللاحقة بالنفس تلقاء لحوادث الواقعة فيحصل له منها إما الارتياح والسرور وإما التألم والكدر ومايتبع

ذلك من احترام النفس أو احتقارها والميل وعدم الميل أو المدح والقدح بالنسبة الى عمل الغير .

وأولى هذه الظواهر للنفس أو الوجدان تسمى أحكاماً حيث ان الوجدان قد يرتبط من جانبها بالعقل وموضوعها كما تقدم أفعالنا الخاصة بنا من حيث احترام النفس بنسبتها أو احتقارها بحسبها ، وأفعال غيرنا بحسب ذلك أيضاً . وثانيتهما احساسات ترى فى التألمات أو الارتياحات والمحبة والكراهة بقدر تلكم الاحكام .

وجملة القول أن المسؤلية بشروطها وأحوالها الآنفة يستشعرها الانسان أيما استشعار من وجدانه بقسميه السالفين من الحكم والاحساس تلقاء الافعال الواقعة وهذه المسؤلية تتفاوت بحسب الاحوال والظروف وليس الجهل أو التجاهل أحدها وليس ميل النفوس غير المنقادة للعقل الى الشهوات منها أيضاً ، وهناك أجمل خلة بشرية واكمل فضيلة أدبية لتقدير الامور أقدارها وبعبارة اخرى لتحويل حال المسؤوليات الادبية الواقعة منا علينا الى خير محض وسرور وسعادة ذلك بأن نربى وجداننا ونهذب نفوسنا تهذيباً صحيحاً تستصلح من ورائه

أفعالنا فتجرى من ثم بمقتضى سنن الآداب الجميلة بما يرتاح له ذلك الوجدان الانسانى المراقب لاعمالنا ، والذمة البشرية الحاكمة على خافيتنا وظاهرنا ، وحسب المتأدب العصرى بهذا نهجاً حسناً وصراطاً سوياً فيه الشرف والرفعة ، وفيه النجاح والسعادة

﴿ الفصل الرابع ﴾

« الحرية الادبية »

اختلاف الناس فى الحرية وحقيقتها — تباين الافعال الصادرة من الاحياء افعال الحيوان السليقية — قوة الارادة الانسانية والاختيار — تعريف الحرية الادبية — ليست الحرية متابعة الاهواء أو فعل ما لا يتصور عقلياً — شروط الحرية وحدودها — الحرية متساوية امام النظامات — ما ينبغي لخلاص الحرية الادبية — القيام بالواجبات قطب رحا الحرية الادبية

قد يفهم بعض الناس معنى الحرية على غير حقيقتها فيخالها التطوح في كل الامور ، ويحسبها التمادى فى جميع الافعال باسم الحرية وبموجب مبدئها العظيم! ويعجب ذلك المتأدب العصرى من حال هذا الجاهل المعتقد في الحرية القاء الحبل على الغارب كما قد يأسف من جهة اخرى لحال فريق الساخطين على الحرية من « المحافظين » لانهم يظنونها حرسهم الله مجلبة الشرور وداعية الرذائل الواقع فيها ابناء الهيئات الاجتماعية لما يعلم من

ان مبدأ الحرية الادبية الشخصية والعمومية مبدأ عظيم جليل له حدود وله آداب وانها لا تتعدى تحرى الحقوق ولا تتخطى أداء الواجبات الانسانية وانها بهذا من خير ما منح الناس على ظهر هذه الكرة وفضلوا به تفضيلا فى تكاليف الحياة العالية ، الحياة الانسانية بجميل لفظها وجليل معناها .

إن جميع الافعال التى تصدر عن الاحياء إما طبيعيه غريزية وإما صادرة عن فكر وروّية ، أى ان كل الافعال إما ان تسبق أى تصدر ابتداء بدون التفات الى النتائج أو الاسباب والغايات النهائية التي تجعل لها قيمتها ، أو تلى ذلك وتقترن به ، والغريزة والعادات هى من مميزات الطائفة الاولى من تلك الفعال ، والارادة هى الواسطة الوحيدة للقيام بالفريق الآخر فريق الافعال الصادرة عن فكر وروّية .

وغير خاف أن الحيوان الاعجم يشارك الانسان فى النوع الاول من الافعال الحيويه الصادرة عن الغريزة والعادة مجردة افعاله عن كل صبغة أدبية يراها الانسان فيها من حيث النفع أو الضرر ، والحسن أو القبح ، بل هو قد لا يعلم من نتائجها الا ما ألفه من قريب النتائج واعتاده من التأثير الطبيعى المباشر .

أما الانسان ، ذلك الكون الاصغر ، فقد حاز قوة الارادة واحرز صفتها العظمية التى هى بالحق فضيلة له للقيام بالتميز والاختيار فى الافعال المختلفة للاسباب المختلفة التي تدفع به اليها ارادته الرشيدة ، وهذه الارادة التى للانسان انما هو يحرزها من بين سائر جنس الحيوان لانه الحائز للصفات العالية وصفوة الصفوة من العقل والفكر الذين لولاهما لما كان له ثم وسيلة للحكم واستعمال القياسات وربط الاسباب بالمسببات ، وحمل المعلولات على العلل ، وحك النظر في الافعال ووزانها بميزان وياله من شرف عظيم لعقل الانسان وارادة الانسان ،

ولقد عرفوا الحرية الادبية بالحمل على هذا من حال الارادة الانسانية أنها « التمكن من استعمال الارادة واستخدامها » وحيث ان الارادة من خصائص الانسان فقد يعلم من هذا أنه وحده الخصيص بالحرية الادبية من بين سائر سكان هذه الكرة وانها أى هذه الحرية لا يتمتع بها الانسان الا بصفته الكائن العاقل صاحب الارادة الحقة التى ينبغى عليه ان يوجهها الى الخير المحض وقد أودع فيه ومن أوله هذا العقل الذى من وظيفته الاستفادة والاختيار المحمود للامور الحسنة وعدم

تخطي التكاليف التى اوجدتها الاوضاع المستحسنة عند أبناء النوع والهيئة التى يعيش المرء فى ظلها وأن لا يصرف ما يشارك فيه الحيوان الاعجم من قوى الغرائز والسلائق الحيوانية إلا بمقتضى النواميس الفاضلة التي اختيرت للعقول السامية فهل الانسان بعد هذا حر بالمعنى الذى يفهمه المتخبطون أو يزعمه بحق الحرية الادبية الساخطون ؟ كلا ثم كلا

الحرية الانسانية ليست فى الواقع ان يفعل المرء ما شاء أن يفعل ، ليست القدرة والتمكن من ان ينفذ الانسان كل ماقام بالخواطر والاغراض إذ ان ضعفنا وعظم قوى الطبيعة ليقف فى سبيلنا كما قد يقف في وجهنا حيال الشطح في الافكار والآراء الادبية قصورنا أيضا من هذه الوجهة ثم تلك الحدود الادبية التى للفكر الانساني بالمعنى المقصود أن لا تخطاها ، وتلك النواميس التى لا يقدر ان يفلت من ربقتها فنحن في الجملة ضعاف وحريتنا بناء هذا ليست الا انتقاء اختيارى للاسباب من بين الاسباب الكثيرة التى يبرزها لنا الفكر ويدفع اليها الاحساس بالمقدار اللازم حيال القيود والروابط والاوضاع المقررة التي لا سبيل الى تخطيها ولهذا قال بعض العلماء الغربيين

ما معناه «نحن لسنا في الحقيقة احراراً لدواع وأسباب صحيحة ، وهاته الدواعي وتلك الاسباب هي التي تحد ارادتنا وتوجه بها في السبل المعينة التي تقضي بها هي »

ثم ان هذه الحرية ليست بقيودها السالفة متساوفيها كل الناس لان كل الناس ليسوا سواء في التعقل والتفكر للوصول والحصول على الحرية الادبية الصحيحة والخروج بالارادة من ربقة الجهالات والخزعبلات إذ بعضهم فوق بعض درجات في العقول والافكار والمعلومات الادبية التي بواسطتها وبواسطة ما نصب بها في العقول من الدلائل للاختيار وحسن الاستعمال للارادة لكشف الامور والاشياء على حقيقتها وانجلاء الشؤون بنسبة ذلك ، فهم متفاوتون في هذا كما قد تفاوتوا في المسئولية بحسبه ، فالحرية كالمسئولية من حيث ان من شروطها العقل وهي تنمو معه كما قد تكثر التكاليف معها ، ولله ما أجمل هذا من حال الانسانية وأمر حريتها .

وليس معنى هذا ان الناس أمام النظام والحدود الشرعية أي الحرية العمليه غير متساوين إذ ذلك أمر لا محيص عنه ولا مفر منه بمقتضى العدل الانساني على الارض وإنما المقصود

بالتفاوت التفاوت فى الصفات المعنوية الادبية التى قد تكون للعقول والوجدانات لحل المشكلات وبعبارة اخرى للخروج من أسر الضلالات واستصلاح حال المسئولبات والتى ينبغي من أجلها للحصول على الحرية الادبية التامة أن يقوم أبناء الهيئة بتربية العقول وتهذيب النفوس لتحصيل الملكات التى تحسن معها الارادات وتصفو بها الاذواق والبصائر لترسخ المبادىء الحقة وتخلص من الشوائب الحرية التى وهبها البارى تعالى الناس وعكس حالها الناس .

بهذه الوسائل يمكن ان نعدد عدد الغلب والظفر ونسلح بها طبيعتنا العليا لتقهر بها طبيعتنا السفلى الحيوانية فترضخ لها وتسير طوع ارادتها العاليه بمقتضى مطلوب الكمال الانسانى بما يرتاح له الضمير والوجدان الشريف وبعبارة اخرى بما نملك معه ماهو حق لنا من الحرية الصحيحة ، حرية الارادة وشرف الغايات ونبالة المقاصد، ولقد قال كنت Kant الفيلسوف الالمانى الشهير فى معنى الحرية بناء على هذا من استصلاح حال الارادات والاميال « الحرية هى تمكن العقل من كبح جماح الهوى » وقال دنيال أسترن راميا الي هذا الغرض في معنى الحرية

« أي امرىء يرفض باختياره الحرية بعد أن عرف حالها فذلك هو الجانى القاتل لنفسه أدبيا، بل ذلك هو الذى أعدم من نفسه المبداء الجوهرى للحياة البشرية وانسلخ عن نفسه الخالدة وسعى بظلفه الى حتفه ملتحقاً بافق البهائم »

وتدور هذه الحرية الادبية من الوجهة العملية على التماس الحقوق والقيام بالواجبات على الوجه الاتم ، لاننا بالبحث عن الفرد فى قواه وحاجاته نرى حق المجموع ، حق الانسانية بأجمعها كذلك من حيث الواجبات فما نراه ونشعر بوجوبه منها بحقنا نرى لغيرنا مثله كذلك وما نحكم بضرره لذواتنا نشاهده على التمام بالنظر الى الآخرين ، من هنا نشأ حق وحقك ، ومن هنا حملت وقر واجبي وحملت ثقل واجبك وان تغيرت هذه وتلك بحسب الظروف والمناسبات والارتباطات ولكنها كلها تكاليف وواجبات واقعة فى عنق الانسان بالتسلسل والتدرج ولذلك عرفوا الحرية العملية بانها « صفة للانسان بها يتمكن من الحصول على حقه وبها ينبغى عليه ان يقوم بواجبه »

تلك هى الحدود التى للحرية الادبية عمليا، استفادة الحقوق والقيام بالواجبات ، فاذا ما امرؤ منع ذلك — وأكثر ما يعيقه

فيه هواه كما بين آنفاً — فقد سلب حريته وارادته وبعد من ثمّ عن مصلحة نفسه ومصلحة هيئته ، فيخلق بكل أن يعرف حقه ويقوم بواجبه وتفصيل هذا الاجمال يندمج في الفصول التالية إن شاء الله تعالى

﴿ الفصل الخامس ﴾

(الخير . الواجب . الفضيلة)

القانون العملي الادبي للانسان — العقل — الخير جملةً وما يتبعه — شرح الخيرات واختلافهم فيها — شرف المعرف وزيوف بعض التعاريف — حكمة لحكيم افرنسي في الخير — الواجب — الواجب عهد في الرقبة — الحقوق استفيدت من الواجبات — اقسام الواجبات — امر الفضيلة — تعريف الفضيلة — لا ظفر في الحياة الا بها .

بما اننا أحرار بارادتنا لاختيار الأفعال الارادية لهذا وجب صرفها أى توجيه حريتنا وكل عناية لنا الى ما هو خير والا كنا اسراءً وعبيداً لما نقع فيه من الشرور والرذائل ولم تنطبق علينا ولا ريب معنى تلك الحرية الادبية كما تقدم فى الفصل السالف ، ولتفصيل هذا الاجمال أقول : ان كل كائن يحمل في ذاته قانوناً للعمل يناسب نحيزته واستعداده وقابلياته فلكي يكشف الغطاء ويستبان أمر سمو هذا القانون على أحسنه فى الانسان

يلزم اعتباره فيه لا بالنظر الى الصفات العامة التى تربطه بالانواع الدنيا من الحيوان بل يجب لذلك ان تراعي تلك الصفات الخاصة ويعتنى بأمر تلك المميزات السامية الخصيصة بهذا النوع الانسانى دون باقى جنس الحيوان واستعمالها على أفضلها عنده لإن الانسان لما كان حيواناً مشرفا بالعقل فليس من صفاته المميزة « الحيوانية » بل هى صفة « العاقلية » تلك التى يرتكز عليها في تمشية كل أعماله والتى يقول فيها حكيم الشعراء المتنبي :

لولا العقول لكان أدنى ضيغم أدنى الى شرف من الانسان

فبالعقل امتاز الانسان وباستعماله شرف وسما فوق رتبة الحيوان كله وكان من أشرف وأهم مبرزات هذا العقل وظاهراته « الخير »

وهذا الخير الذى اتفق اكثر الفلاسفة المتقدمين والمتأخرين على القول بأنه « ما يجب ان يكون في العمل كما ان نقيضه من الشر هو مالا ينبغى ان نكون عليه في أفعالنا » قد يفسر بناء على هذا « بالواجب » ثم « بالفضيلة » هذه التى يجب على الانسان ان يتحلى بها ليبلغ كماله الانسانى وشرف نفسه الملكية السماوية

ولنشرح أولا الخير ثم لنأتي بعده على شرح الواجب

فالفضيلة لانها أصول في باب الحياة الادبية الانسانية قبل ان ندخل في التفصيل المبنى عليها فى شؤون تلك الحياة فأقول

بقدر ما اتفق الفلاسفة على القول بأن الخير نقيض الشر اختلفوا في جنسه أو فى انواعه كما قالوا بالخير المطلق والخير الادبى ، فالاول هو الكمال العالى المنشود ، والثانى هو تلك النسبة الاعتبارية القيمة للافعال الصادرة من البشر بالنظر الى الخير بالذات أى الى الخير المطلق ، وهنا حصل الاختلاف في ذلك التعلق بين الخيرين أى الفرع بالاصل فيما يوصل اليه ، فبنى قوم الخير الادبى على الاختيار العملى وكان على رأيهم « اللذات » كما ذهب اليه من القدماء الفيلسوف « ارستيب » و « ابقريوس » وحصره غيرهم فى « المنفعة » كما ارتأه من الفلاسفة المتاخرين «هوم» و «بنثام» و « استيوارت ميل » وجعله الفيلسوف « هربرت سبنسر » الميل أو المتابعة لناموس النشوء والارتقاء العام غير ان ماوجه من الانتقادات والتزييفات على هذه الآراء فى الخير الادبى جعل فريقاً آخر من الفلاسفة يستندون فى تعريفه الى العقل لكن هذا الفريق لما اختلف فى تعريف العقل وهداه اختلف بالطبع فى تعريف الخير بالتبعية

لذلك فعند « أفلاطون » ان «الخير هو محاكاة الخالق تعالى» وعند أرسطو هو« استخدام العقل لا سواه مما هو من خصوصيات الانسان» وعند «مالبرنش » انه «متابعة النظام» وعند « لوبنتز » « انه بلوغ أسمى درجة من الكون الآدمى والعقلى » وحد « كنت » الخير بما ينبغى ان يكون عليه في صورته العمليه حيث جعله « ما يمكن ان تتجه اليه الارادة العامة الانسانية »

هذا هو تعريف الخير ، الخير الادبى الذى يجب ان نكون عليه بناء على ما أرتآه جماعة الفلاسفة المتقدمين والمتأخرين بحسب اختلاف انظارهم فيه بالنسبة الى الخير المطلق والعقل الانسانى وانت خبير ان كثرة التعاريف تدل على شرف المعرف وهذا المعرف هو الخير .

ونحن هنا نسرد ما نوقشت به بعض التعاريف لاظهار عدم مطابقتها لشرف المعرَّف تمام المطابقة فان من قال مثلا انه «اللذات» فقد اخطأ لان فى اللذات ماهو مناقض للخير على حد سواء المطلق منه والادبى وكذلك من جعله «المنفعة» لان النفع مقيد بالحق فالمال نافع ولكن إذا لم يوافق كسبه

«الحلال» وصرفه «الحق» كان والشر من الاغتيال والتبذير سيين

وتعريف الفيلسوف سبنسر فيه ما فيه مما يخالف روح الانسانية وتعاليمها العالية بنوع ما إذا لم يفهم على حقيقة معناه أما باقي التعاريف فقد يمكن ان يراها الناقد غير ذات تباين كبير وبعبارة اخرى انها تناسب ما هو المقصود من الخير الادبي المطلوب المحبوب ما دام موافقاً للخير المطلق ، للخير بالذات ذلك الذى هو المبدأ الاسنى الذي يجب ان نبني عليه القانون الادبى عماد السلوك وأقوم النهج الذي يجب ان يسلكه المرء في حياته الادبية الاجتماعية ولقد قال مسيو « جول دولافلوا » احد كتاب فرنسا في القرن الماضي هذه الجملة فى الخير وشرحه وضرورة نشده فى الحياة ما معناه « ما هو الخير وما الذي يشمل ؟ هل هناك أولاً خير سالم ، خير محض ؟ ان صعوبة هذه المسائل وأهميتها قد لا تفوت انسانا لانه يتوقف على الحل الذى يعطى لها وتفسر به ليس فقط وجهة الادب النفسي بل وجود ذلك الادب ذاته لانه ما الفائدة فى الواقع منه إذا كان كل شيء قد يتساوى خيره وشره ، إذا كان مانسميه فضائل وما ندعوه رذائل سيين ، إذا كانت الافعال المليحة

والافعال القبيحة متساوية الفاظها في القيمة والاعتبار ! ففى الوجدان الانسانى ، فى أسمى نميزات هذا الانسان ينبغى أن نبحث عن اصل ومصدر ذلك الخير تلك الفكرة التى برزت معنا الى عالم الوجود والتى هى قوام حياتنا والتى هى أزلية ومرتبطة ومحمولة على سر هذا الوجود ، فنحن من ثم لا يمكننا ان نستغنى عن الخير بل هو ضرورى لحياتنا العملية الرئيسة ، وكل مخلوق منافيه بنوع خفى حاسة باطنية تريه ما غاب وما حضر من الخير ، ولقد يمكن ان يقال ان ظاهرة وجود هذا الخير ترجع الى سلطان براهين العواطف والاحساسات اكثر مما ترجع الى قوى براهين العقل ولكننا فى الحقيقة إذا فحصنا أمر هذا الخير من نفوسنا وجدنا بلا كبير جهد او عناء ان هناك ذلك الارتباط العظيم بينه وبين تركيب العقل البشرى والوجدان الانسانى لان مايسمونه شراً قد يجرح عواطفنا ويؤلم احساساتنا ويكدر صفاء عقولنا ونفوسنا ، أما الخير فهو الذى يبهج نفوسنا ويسر خواطرنا وينشط قلوبنا وافئدتنا ثم ان ما ندعوه شراً قد يوقف رقينا ونمو حالنا فى حين ان ما نسميه خيراً هو كل ما يعيننا فى رقينا ويساعدنا على التقدم فمن ثم

يتحد مع مانسميه بالنظر الى احوالنا برقي الانسانية وتقدمها الادبي المنتظم بالتضامن من بين افرادها والتعاون في جماعاتها وهذا المبدأ في الخير ومعناه وان ظهر بادىء بدء خاصا لكنه في الحقيقة يربط الانسانية على جهة العموم في اقوامها وعشائرها فما يؤثر من خير ومن شر على الفرد في الامة قد لا يؤثر عليه بمفرده وإنما هو قد يعم ويشمل الجمعية ، يشمل فئة من الافراد بالتتابع فمن هنا ينتج بالضرورة ان ما يحصل من فوائد وخيرات في هيئة تكون كالمشتركة فيجب ان تتحد الهمم وتتعاون الجماعات على جلب ما هو خير وتجنب ما هو شر ... »

* * *

واني لأكتفي في شرح الخير ومبدأه الاجتماعي العظيم بهذا القدر لذلك الحكيم الفرنسوي وإخال القارىء مقتنعاً به وبالتالي شاعراً بانه المبدأ الصواب لهذا الخير الادبي الاجتماعي والفردي فلذلك أسرد امر « الواجب » ذلك الذي قالوا فيه بالحق انه رديف القانون الادبي والذي هو مطلق يحتم اتباعه بالارادة الصادقة والعزيمة الثابتة بالنظر الى مبدأ الخير ، ولقد عرف الفيلسوف كنت الواجب بقوله « الواجب هو التزام

القيام بالطاعة لأمر الشريعة احتراماً للشريعة » وهو يعني ولا ريب شريعة الادب النفسي قبل بدليل ماقد سلف من ان الواجب رديف القانون الادبي وبالتالي العمل، والقول بان هذا القانون الادبي حتمي لاينفي البتة مبدأ الحرية إذ الحرية الصحيحة كما تقدم هي استفادة الخيرات بالارادة الصادقة والقيام بها في صورة واجبات حتى تصير أفعال المرء نفسه بها «قانونا عاماً» كما قال كنت ولن يكون ذلك كذلك الا إذا طابقت تلك الفعال أوالواجبات مايأمر به الوجدان مطابقة منتظمة بحسب القوانين والمصطلحات الموجبة لرقي ذلك الكائن العاقل من الانسان حتى يقاد دائما ويتوجه أبداً نحو الغاية السامية من وجوده ولهذا قال رينال «يمكن ان نحد الواجب بانه الامر الالزامي في فعل مايوافق الهيئة الاجتماعية » فكأن الواجب عهد في رقبة كل انسان يجب القيام به وتأديته . ولن يكون الانسان انسانا الا إذا قام بعهده ووفي به لشرفه .

والواجب والحق واحد لانه لتبادل الواجبات جاءت الحقوق ولهذا صار واجب الانسان حقاً لاخيه ، حقاً لهيئته الاجتماعية كما أن واجبات الهيئة بالنظر الى الفرد هي حقوق له

فى رقبتها تحت سياج القانون الادبى والوضعى اللذين يحرسان الحريات والحقوق ويحتمان القيام بالواجبات .

وتقسم الواجبات الى ثلاثة أقسام : واجبات نحو الذات واجبات نحو الهيئة الاجتماعية وواجبات نحو الخالق تعالى ،

وتفصيل هذه الواجبات الادبية ستأتي فى الفصول التالية لانها موضوعها وبعبارة أخرى موضوع الحياة الادبية ولب الحياة الاجتماعية وأساسها المتين .

وإذ قد عرفت شأن الخير وشأن الواجب فلا قصن عليك أمر الفضيلة وهى آخر ماعقد له هذا الفصل الاجمالى فأقول :

الفضيلة — وما أحلى اسمها — هي القيام بالواجبات الادبية على جهة الاعتياد والانتظام وهى تقتضى من ثم عناية الانسان وتعبه حتى ترسخ وتنتظم له كل الاحوال الفاضلة لتوافق أعماله القانون الادبى وتصفو له موارده من الاكدار اكدار الشهوات واللذات الغير المنطبقة على مبدأ الخير ومطلوب الواجبات الادبية والحكمة العملية ، فكل مانقوم به من الواجبات الادبية والخيرات الاجتماعية يعد لنا فضائل تشرف بها نفوسنا وتعلو بها على بنى النوع كمونا

وهذا القول فى الفضيلة مبنى على تعريف الفيلسوف ارسطو لها في أحد تعريفيه للفضيلة حيث قال « الفضيلة هى اعتياد الخير » لانه واضح ان وجود « سنونة » واحدة لايدل على وجود فصل الربيع كذلك مالم يكن هناك اعتياد متكرر على الخيرات فى أفعالنا فلن يكون منطبقاً على احدها اسم الفضيلة لكن قد اعترض على هذا التعريف للفضيلة لخير الفضيلة ذاتها ذلك ان الفضيلة هى التوجه بالعزم الثابت والارادة الصحيحة في الافعال السامية واختيارها فهى أبداً لهذا مصدر للاحساسات الشريفة والعواطف والاعمال الكريمة المستأنفة المتجددة أما العادة فهي ماصدر عن غير قصد ولافكر فى الافعال المتكررة بلا قصد فى حين ان مطلوب الفضيلة هو القصد الادبى ذلك الذى يتحرى صاحبه ابداً عمل الخير عن فكر وعن روّية ، فالفضيلة اذاً إذا ماشملت الافعال الجميلة الاعتيادية فهى أيضاً ماينشد بها أبداً عن فكر وعن روّية مستأنفة الرقّ وتجويد الافعال .

ولقد اعترض على تعريفه الآخر للفضيلة الذى قال فيه أنها الحكمة وانها التزام حد الوسط بين الاطراف بأن هناك من الامور والاحوال مايقضى بأنهاج نهاية الحد فيه ولايعد

الاعتدال فيه من الفضيلة وإن جهاد النفس لبلوغ هذا الاعتدال والتزام حد الوسط لهو نفسه نهاية مايبذله الانسان من نفسه من الجهد الجهيد حيال نفسه التى بين جنبيه فلهذا من حالتى تعريف ارسطو للفضيلة يعلم فضل تعريف سقراط وافلاطون حيث جعلاها علم يتعلم بالممارسة ونهج ينتهج بالاختيار ولهذا عرفها المصريون بتعريف جامع حيث جعلوها « بذل العزيمة الثابتة للارادة في الطاعة على نور وعن محبة ورغبة لما يأمر به العقل الرشيد » فهل يسعد الانسان الا إذا وفق لاختيار هذا النهج في الحياة بما يوافق العقل وحكم الوجدان ؟ وهل هناك شر على الانسان أكبر من اقتحام الرذائل والانغماس في الشرور واستجهال أمر الواجبات والتلطخ بمفاسد الامور الاجتماعية من أي نوع كانت ومن أي طريق وجهت سهام غواياتها الصائبة ونصبت شراكها الصائدة ؟ لاريب ان جهاد ذلك كله بالعقل والروّية قياماً بحق الواجبات الانسانية لهو الجهاد الاكبر ولا ظفر ولا فخر إلا بالتحلى بحلى الفضيلة كما قال الشاعر الفرنسي « لامارتين »

﴿ الفصل السادس ﴾

واجبات الانسان نحو ذاته

قسما الواجبات نحو النفس — مايجب للبدن — العمل العمل — الرذائل من ارداً الشرور المعوقة — الامراض الادبية والتخلص من أسرها مساوي أمور الحضارة الفاسدة — الخمر — قول لهانوتو فيها — الحشيش المورفين — الشهوات الفاسدة — كيف نتحايل على تحويل الاميال النفسية الميسر وذيوله — البورصة امر العيش — قتل النفس — التعلم والتثقف شرف العقل في تربيته لالتماس الحقيقة وتجنب السفسطة — بالعلم يتخلص من الصلف ويعرف الحق — أهم مايجب معرفته — الاعتدال في باب العلم ونشره — تربية الاحساسات والاذواق — تربية الارادة وتقوية الشجاعة الادبية — احترام الذات وتحري مايوجب احترامها .

إنا لنعلم جميعاً ان لذاتنا علينا حقوقا وأن فى رقبتنا نحو أنفسنا واجبات ، وهاته الحقوق أو تلك الواجبات تقسم الى قسمين حقوق للبدن وحقوق للنفس ترجع كلها فى الاستناد الى شرف قوى الانسان وإذ كان الأمر كذلك فهى كما كانت سبباً للواجبات نحو بنى الجنس فتكون كذلك وبالاولى من الواجبات في رقبة الانسان نحو ذاته من حيث حفظ صحة بدنه وسلامة نفسه .

فواجب حفظ صحة البدن يقضي ادبياً واجتماعياً ان يحافظ المرء على سلامة جسمه بتناول الغذاء الجيد ولبس اللباس الحسن

وتحرى النظافة والحركة والرياضة وان يتجنب كلما من شأنه ان يجلب عليه الضرر أو يعطل شأن تلك الآلة من جسمه الذي يعتمد عليه فى هذه الحياة الدنيا حتى لايصير عضواً عاطلا فى جسم الهيئة أو انسانا مريضا يتضرر منه ويتأذي .

تلك اشياء حيويه قاطعة فيجب على الانسان بالحق ان يجتهد ويدرأ عن نفسه شرورها فى ذاته حباً بها وباستقلالها فينبغي لذلك ان يختار المرء أولا « المهنة » الرابحة التى تناسبه ليكسب عيشه ومادة حياته منها ولا يصير عاطلا وعالة على الهيئة الاجتماعية ، ففى العمل والشغل مادام شريفا أعظم فائدة جوهرية للانسان سواء فى بدنه أو في عقله أو نفسه وما علل البطالة والكسل والكاعة بأقل ضرراً من شرور الرذائل واقتحام الشهوات والموبقات قال الكونت دوسجير « ان البطالة شر من الرذيلة بل هى ام الرذائل والشرور وهى مصدر اكثر الاختلال الذى يحصل فى الممالك » ولهذا جاء فى قول حكيم آخر « الكسل نوم لا رؤيا سارة فيه ولا مايجدد قوى الجسم أو ينشط الروح »

وليس من شر بعد البطالة والكسل أقبح من الانغماس

فى الرذائل والشهوات تلك التى تلازم أحوال التمدن وتعد من قشوره ومساويه الملازمة ، فالرجل الذى يدمن الخمر او يتعاطي الحشيش او يترامي على الشهوات او يضيع ماله فى الميسر أو السرف والتبذير فى زخارف الحياة ليس في حكم الآداب الصحيحة برجل الهيئة الاجتماعية الذى يرجى خيره بل هو بالضد من ذلك قد تكثر مساويه ومضاره وعدواه السامة ، فاذا كان من الضرورى ان يبتعد الانسان عن ذوى الامراض المعدية الطبيعية تفاديا من خطر العدوى فبالاولى يجب ان نتجنب معاشرة ذوى الامراض الادبية من أرباب المفاسد والغوايات والا وقع المرء فى أمراضهم الضارة القبيحة والتى يقضى واجب الذات فى رقبة الانسان ان يبذل كل وانع في شرور هاتيك العلل والاسقام الاجتماعية جهده حتى يتخلص من أسرها باستخدام الارادة الحقة والعزيمة الصادقة للعقل الرشيد فى الاقلاع عنها موبخاً نفسه مشعراً وجدانه بأن تلك المفاسد التى يقع فيها ليس لها فى الحقيقة من فائدة البتة لا صحياً ولا أدبياً ولا ماليا وإنما هى رذائل حكم الحس والمشاهد بضرها وشرها بدليل انها قد تنتهى غالبا بأن تعجل أمر الحياة فضلا عما تنغص

به عيش المرء وتسلبه من أجله هناءه الصحيح فى ذاته وبين أهله وهيئته وتحط فوق ذلك بشرفه ، فكما ان علم الطب قد أنحى باللوم وانذر بالويل اولئك الذين يدمنون شرب الخمر أو تعاطى الحشيش واولئك الذين يتبعون الشهوات ويترامون على الموبقات فقد أنذر بالخراب كذلك علم الاقتصاد الاجتماعى اولئك الذين يندفعون فى تيار المقامرات والمضاربات وكل أنواع الاسراف والتبذير في امور الحياة بما يهلك الحرث والنسل

فواجب الانسان نحو ذاته يقضى عليه حيال شرف نفسه وحيال فائدة أهله ومصلحة هيئته أيضاً أن لا يكون بادىء بدء سكيراً ولا حشاشاً ولا محباً للفساد ولا مسرفا مبذراً لأن أدمان الخمر وكثرة معاطاتها يؤدى الى أقبح الحالات الاجتماعية واسوأ النتائج الصحية الموجبة للانحطاط وسقوط الهمة وسقم البدن والتعجيل أخيراً بالعمر فضلا عن سلب الصفات الادبية الكريمة وفقدان العقول الرجيحة والشرف والمروءة الصحيحة عند اولئك السكيرين وكثرة حماقاتهم وجنونهم وكم من تعساء أوقعتهم شهوات نفوسهم فى الانزجاج فى زمرة السكيرين بتشويق خلاعة حمقاء شعراء السلف في تحسين

امر الخمر او بغواية الاصحاب والاحباب فراحوا شهداء تلك المفسدة الاجتماعية التى حرمتها مع ذلك اكثر الشرائع وقامت في وجهها الآداب العمومية فى الهيئآت المتمدنه الحالية بما أنشىء في انحاء العالم المتمدن العصرى من جمعيات « منع المسكرات » ومقاومتها جهد الاستطاعة قال العالم راينو قاضياً على حال السكيرين منبهاً على فضل اجتناب تعاطى الخمر « كم من مخازى وفصول هزء وهذيان ، بل كم من حالات جنون ويله تبدو لعين الناقد الناظر بالشفقة والحنان الى حال عصابة السكيرين من أهل هذا العالم ، عصابة أولئك التعساء المجانين باختيارهم فذلك الذى يحترم ذاته ويحب واجبه الانسانى ويقدره قدره لن ينسي قط مافى طى ذلك من درس وموعظة فهو لذلك يطلب الى الطبيعة وحدها تلك الام المغذية لنا غذائها الصحيح الشافي الذى يعين على تحمل وقر الحياة بلا ضعف ولا ضرر بل بما يمنح القوة والنشاط فى الجسم والطيبة فى النفس فما تظهر الخمر انها تعطيه الانسان تمنحه الطبيعة إياه على أحسن حال وأتمه »

على ان مما يزيد الطين بلة فى هذا العصر خصوصا مايحصل من غش المشروبات الروحية وصبغها بالألوان وتسميتها بالاسماء

المختلفة التى تسرق النفوس ولقد جاء فى مقال لمسيو هانوتو نشره أخيراً في جريدة الجورنال الباريسية نوه فيه بما يجب على الحكومة من التداخل فى امر المشروبات الروحية وان ابناء المصر من الاوربيين وان كانوا لا يشربون كابناء العصور المتقدمة لدرجة السكر لكن مضارها فيهم اسرق للنفوس وأضربها عما كانت عليه ايام اسلافهم لرداءة صنفها وكثرة غشها وطلب الى ابناء المصر المترقين فى الآداب ان يتغلبوا على تلك العادة من تعاطى الكحول ليتخلصوا من اوضاره ومضاره معاً .

أما الحشيش — ولا ازيدك تعريفا بحاله في شرقنا عموما ومصرنا خصوصا — فهو من اكبر الآفات على ذات الانسان بل هو شر من الخمر عليها لانه يبتدي، بالخمول ويوقع في القذارة والانحطاط والكسل والبلادة والحماقة وينتهى بالجنون كثيراً وتقارير مستشفى المجاذيب عندنا ناطقة بان نحو ثلاثة أرباع داخليها إنما مصدر امراضهم العقلية ويا للأسف تلك الآفة المستحكمة فى طبقاتنا النازلة خصوصا والتي هى من اكبر مصائبنا الادبية ومسببات تأخرنا وكثرة سفاهة سفهائنا وبلاهة وسذاجة عوامنا كما تحققه المشاهدات والاختبارات الظاهرة

وهناك شر آفة نفسيه أيضا وهى «المورفين» والافيون ولا تقل بلواها فى البشر عن الخمر والحشيش وإن كانت بلادنا قد يتدر فيها الآن من يتعاطى الافيون القتال

واذا كانت للخمر والحشيش والمورفين هذه المضار الظاهرة بل السموم القتالة فلا تتحام الفساد تلك المضار الاخرى التى لا تقل عن اضرار الاولى والى تعد الخمر والحشيش من اكبر رائديها وسائقيها ، فالانسان يجب أن يكون عفيفا قنوعا مالكا شهواته لا عبدها وأسير غواياتها الفاسدة ونزعات شهواتها الباطلة جملة لان واجب حفظ صحة الذات وبقائها يقضي عليه بملازمة العفة والقناعة وان لا يكون رجل الشهوات والموبقات والا أردى بحياته الطيبة كما يردى بها رجل الخمر وعبد الحشيش والمورفين على نحو ماسلف ، ولقد يقال ان الشهوات منها ماهو طبيعي مفيد بل واجب سده والقيام به مما هو من جهة أخرى في مصلحة وفائدة بقاء النوع وارتقاء الجمعيات البشرية ـ قلت هذه شهوات لها مبادئها الادبية الصحيحة وقيودها الشرعية الاجتماعية الرجيحة مما لا غبار عليه وانما اللوم والتثريب موجه على اتباع الشهوات الفاسدة ، الشهوات المشينة المحرمة التى تفسد

حال الاجتماع البشري وتؤدي الى أشأم النتائج فيه شخصياً وعمومياً فهي ثالبة الشرف ثالمة الصيت وتنتهى غالبا باكساب الجسم أحد الامراض القتالة والعلل التى لا يرجى شفاؤها فتعم البلوى ويتناول السقم الذرارى على حد قول ابى العلاء المعرى

هذا ماجناه ابى علي وما جنيت على أحد

فتكون الجناية مضاعفة والوزر أمام الناموس الادبى والوجدان الانسانى والهيئة الاجتماعية عظيما كبيراً ، وهناك فى مداواة حب الشهوات والجنوح اليها كثير من الوسائل المفيدة والعلاجات الناجعة بعد توسيط الارادة الصادقة فتستبدل من ثم ردى الشهوات بجميلها ويستعاض عن ثقيلها بخفيفها والعاقل من تحمل أخف الضررين ولهذا جاء في أقوال الفيلسوف روسو « انه لن يتغلب على الشهوات الا بمعارضتها ببعض » فاذا كان من عادتك وبعبارة أخرى من كبير غوايتك الميل الى قضاء سهراتك في أمكنة القصف واللهو ومعاقرة بنت الحان مع اخوان ذوى بهجة و « حظوظ » فاستبدل ذلك بغشيان اماكن التمثيل وحفلات الموسيقى أو اماكن المطالعة أو أندية الفنون الجميلة ، واذا كان من كبير شهواتك حب الاشتغال العقلي وكثرة الدرس والمطالعة

فأكثر من الرياضة في الغياض والرياض واستعمل الالعاب اللطيفة المسلية وزيارة المتاحف والحدائق وأنت يسرى عنك ولا ريب داؤك وفاسد ميلك وشغف نفسك لان الاعتدال في مثل هذه الاحوال أيضاً مطلوب والتوسط في كل شيء محبوب ومفيد بشرطه الآنف فى حد الفضيلة .

ومن شر تلك الشهوات لعب « الميسر أو القمار » ذلك الذى وجد فى المجتمعات البشرية من قديم الزمان وقد شبهه بعض العلماء فى اضاعة الاموال على الناس «بهوة سحيقة لا قرار لها ولا حد» فالرجل الذى ينغمس فى شر لعب القمار وآفة هذا الميسر مهما كان نوعه يكون فاقداً لمبدأ الحكمة وغير عامل بالشرائع ولا مصغ للوجدان ومحروم من الادب النفسى ، ان الانسان الذى يضيع ماله هباء منثوراً فى القمار لهو المسلوب العقل والفاقد الاحساس والشعور وحسن الارادة والاذواق مهما كانت حيثيته الوجودية فى هذا العالم وكثيراً ماينتهى حاله الى الفقر ويؤدى به الحال الى الانتحار واعدام نفسه تخلصاً مما أوقعته فيه شهوته الشيطانية بعد أن يكون قد اعدم ثروته وافقر عائلته وهى نتيجة غاية في الخساسة والدناءة وسفالة النفوس وانحطاطها ،

وهناك ما يقرب من هذا القمار واعنى به المضاربة تلك التى دخلت بلادنا وفشا فيها داؤها حديثا وكم سمعنا بما سحقت «المضاربة» في القطن أو الاوراق المالية من ظهور وأصابت من مقاتل عندنا لا لسبب آخر سوى غرور النفس وطمع الافئدة ولقد أحسنت الحكومة صنعا فيما قررت أخيراً وصادق عليه مؤتمر تنقيح القوانين للمحاكم المختلطة الدولى من جعل البورصة تحت رقابة الحكومة وشبه ادارتها والسماسرة تحت ملاحظتها.

وواجب الانسان نحو ذاته كما يقضى عليه بوقايتها من سيء الشهوات والآفات الاجتماعية الدقيقة التى قد تسرق النفوس يقضي عليه من جهة أخرى بان يتطلب لها أحسن أنواع الغذاء واللباس والسكنى بنسبة حاله وان يراعي نظافة بدنه ولباسه ومنزله وان يتروض ويكثر من كل ما يقويه وينمى أجزاء جسمه حتى لا يقع فى الاسقام والامراض وليس فى هذا كله ما يوجب التأنق أو السرف والتبذير في المأكول والملبوس إذ أمثال هذه الامور وان صحبت أحوال الحضارة ورفاهيتها لكنها ليست لحسن حظ الانسانية مما يجعل ذلك المتنعم المتأنق في لباسه وفرشه

ومأكله أسعد حالاً غالباً فى صحته من ذلك الفقير أو المتوسط الذى يراعي شؤونه الحيوية بحسب قواعدها الطبيعية وعلى قدر حاله إن اضطراراً او اختياراً ، وإذ كان المال قوة فمن الضرورى لكل انسان يعرف واجبه نحو ذاته ان يدخر شيئاً منه للمستقبل على ان مما يؤسف عليه ان قومنا المصريين ليس فيهم هذه الملكة المفيدة ملكة الادخار الضرورية فمع تقدم البلاد المالى وعظم حركتها الاقتصادية ترى الفلاح متي ما باع محصوله لم يعمل غالباً الاحساب ماعليه من الاموال والديون والباقى كثيراً ما يبدده فى مشتري « اكسية ومصاغات » له ولاهل منزله ، والصانع الفقير حاله اتعس من ذلك إذ انه يأخذ أجرته الضئيلة فينفقها كلها وغالباً يكون ذلك فى «السخافات» ثم هو عند العوز تراه يرهن متاع بيته الحقير عند أولئك الناس الذين لا رحمة ولا شفقة ولا مراعاة للقوانين عندهم فيقرضونه المائة قرش بسعر خمسين او أكثر وهذا واضرابه الكثيرة من حالنا مما يخالف مبدأ الحياة الصحيحة وبعبارة أخرى واجب الانسان فى هذا العصر نحو ذاته وما ينظر الى مصلحته التى تقضي عليه بحسن التدبير وعدم التبذير فى أمر العيش حتي يكون هناك ولو الشيء